عنوان المحاضرة: التعليم طرقه ومناهجه عند ابن خلدون

الأهداف:

-التعرف على مفهوم العلم والتعلم عند ابن خلدون

- إدراك العلاقة بين التعليم والحضارة والعمران من منظور ابن خلدون

-التعرف على طرق التعلم ومراحله عند ابن خلدون

-التعرف على الرؤية الخلدونية للمناهج التعليمية من خلال التجارب التي اطلع عليها في عصره

مقدمة

اجتهد علماء المسلمين في وضع أسس نظرية تربوية إسلامية وبرز في هذا المضمار: ابن سينا والغزالي وابن خلدون الذي احتل موضوع تعليم الصغار وطرائقه نصيبا من اهتماماته الفكرية. في هذه المحاضرة سنتناول ملامح النظرية التعليمية عند ابن خلدون من خلال مفهوم العلم والتعليم ومنشأ التعليم وطرق التدريس ومناهجها.

1-مفهوم العلم والتعلم عند ابن خلدون

خصص ابن خلدون بضع فصول في المقدمة للحديث عن التعليم وأبرزها الفصل السادس الذي حمل عنوان ''العلوم وأصنافها، والتعليم وطرقه وسائر وجوهه''، وكما نلحظ فإنه جمع بين العلم والتعليم في هذا الفصل الذي أسهب فيه في ذكر كل علم من العلوم وأشار إلى كيفية ''تعليم العلم''، وقبيل استعراض آرائه في ذلك نتوقف أولا أمام تعريفه للعلم ودرجاته.

يرى ابن خلدون أن العلم هو حصول الفكر (العقل) على شيء لم يكن حاصلا عليه من قبل، وهذه الأشياء التي يتحصل عليها ليست طبيعية فلا تولد مع الإنسان، وإنما هي مكتسبة ويتم الحصول عليها شيئا فشيئا، لأن الفكر دائم الحركة يفكر في الحياة والميعاد وهي أمور تستدعي تحصيل ما ليس لديه، ولأجل هذا تنشأ العلوم والصنائع، ويبدأ العلم بالإدراك ثم يتطور إلى المعرفة التي تنمو وتتطور حتى تصبح علما. والعلوم لديه على صنفين ''صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه'' والأول هو العلوم الفلسفية والثاني هي العلوم النقلية الشرعية التي تستند إلى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال للعقل فيها[1].

2-صناعة التعليم وتطورها

ويعتبر ابن خلدون أن "العلم والتعليم طبيعي في البشر" لأن الإنسان يتطلع دائما إلى تحصيل ما يفوقه من المدركات، ويرجع فيها إلى من سبقه بعلم أو إدراك أو خبرة، وهذا هو منشأ التعليم الذي يزدهر وينمو "حيث

1

يكثر العمران وتزدهر الحضارة"، ويضيف: "إن ما يظهر على أهل الحضر من آثار الذكاء والكمال في العقل، «إنما هو من رونق الصنائع والتعليم، فإن لها آثارًا ترجع إلى النفس" ويرجع السبب في ذلك إلى أنه أمر زائد على الأمور الضرورية من مأكل ومشرب، فمتى أشبع أهل العمران حاجاتهم الأساسية انصرفوا "إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان وهي العلوم والصنائع"، ومن نشأ في البادية وتشوّف بفطرته إلى العلم فلن يجد ما يشبعه ولا بد له من الرحلة في طلبه إلى الأمصار، وأن يقصد مشاهير المعلمين لأنهم السند في التعليم.

ويعتبر ابن خلدون "التعليم صناعة من جملة الصنائع"، وهو ما يعني أنه ليس موهبة فطرية وإنما هو ملكة يحصلها الإنسان ويكتسبها، ويلاحظ أنه تطور بمضي الزمان إذ يقول "التعليم صدْرَ الإسلام والدولتين لم يكن كذلك، **ولم يكن العلم بالجملة صناعة إنما كان نقلا لما سُمع من الشارع وتعليما لما جهل من الدين** على جهة البلاغ[2] وهو يفسر لنا هذا التحول على ضوء انتشار الإسلام بين شعوب الأرض وكثرة استنباط الأحكام من النصوص "فاحتاج ذلك إلى **قانون يحفظه من الخطأ**، وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم **فأصبح من جملة الصنائع والحرف**".

ومما يبرهن على كون التعليم صناعة "**اختلاف الاصطلاحات** فيه -**أي طرق التعليم**-، فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم، إذ لو كان من العلم لكان واحدا عند جميعهم"، وهذا يعني أن ابن خلدون يقر باختلاف طرق التعليم وتنوعها وأنه ليست هناك طريقة واحدة صحيحة وما عداها باطل.

3-التعليم والتربية

كثيرًا ما يتكلَّم عن التعليم وحده، يتكلَّم عن تعليم الصنائع، أو تعليم العلوم، أو تعليم اللغة، من غير أن يذكر التربية، ومع هذا فإنه يتطرَّق في بعض الأحيان إلى مسائل التربية أيضًا، وإن لم يسمِّها باسم خاص. فهو يقول مثلًا في فصل «الرحلة في طلب العلم» ما يأتي: "إن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارةً علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارةً محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات من المباشرة والتلقين أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا" يبدو أن ابن خلدون من كلامه يقرن المعارف والمذاهب بالأخلاق والفضائل، ويقرِّر أن البشر يأخذون ذلك تارةً علمًا وتعلُّمًا وإلقاءً وتارةً محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة وأنه ينظر بهذه الصورة إلى التربية والتعليم نظرةً شاملةً جدًّا، نظرة تشمل العلوم والأخلاق، وتتناول طرق اكتسابها من التعليم إلى التلقين والمباشرة والممارسة.

4-المنهج الدراسي عند ابن خلدون:

2

برع ابن خلدون بوضع صورة عن المناهج، حيث:

-يقرِّر في فصل الخط والكتابة "أن الكتابة أكثر إفادةً لزيادة العقل وتقوية ملكات الإدراك والانتقال"، ويعلِّل ذلك بما يلي: "لأنها تشمل على العلوم والأنظار، بخلاف الصنائع؛ وبيانه أن في الكتابة انتقال من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية في الخيال، ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس، ذلك دائمًا؛ فيحصل لها مَلَكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات. وهو معنى النظر العقلي الذي يكسِب العلوم المجهولة، فيُكسِب بذلك مَلَكة من التعقُّل تكون زيادة عقل، ويحصل به قوة فطنة وكيس في الأمور؛ لما تعودوه من الانتقال".

-وفي فصل الهندسة يقرِّر ابن خلدون أنها تفيد صاحبها "إضاءةً في عقله واستقامةً في فكره"، ويعلِّل ذلك بما يلي: "لأن براهينها كلها بيِّنة النظام، جليَّة الترتيب، لا يكاد الغلط يدخل في أقيستها؛ لترتيبها وانتظامها؛ فيبعد الفكر بممارستها عن الخطأ، وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهْيَع[3] ... وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون: ممارسة علم الهندسة للفكر، بمناسبة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقذار، وينقيه من الأوضار والأدران. وإنما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه".

-ويقرِّر ابن خلدون فائدة الحساب أيضًا على هذا المنوال، ويوصي لذلك بالبدء بالحساب في تعليم الوِلْدان. فإنه يقول في فصل العلوم العددية ما يلي: "هذه الصناعة (صناعة الحساب) حادثة، احتيج إليها للحساب في المعاملات، وألِّفَ الناس فيها كثيرًا، وتداولوها في الأمصار بالتعليم للوِلدان، ومن أحسن التعليم عندهم الابتداء بها؛ لأنها معارف متضحة وبراهين منتظمة، فينشأ عنها في الغالب عقل مضيء دُرِّب على الصواب، وقد يقال: من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره يغلب عليه الصدق؛ لما في الحساب من صحة المباني، ومناقشة النفس، فيصير ذلك خُلقًا، ويتعوَّد الصدق ويلازمه مذهبًا".

5-الأهداف التعليمية عند ابن خلدون:

يتوسَّع ابن خلدون في شرحه مفهوم التعليم بتعيين **غايته**، في الفصل الذي يقرِّر "أن التعليم للعلم من جملة الصنائع" فالتعليم لا يستهدف "الفهم والوعي" فقط، فلا يتم بـ "الحفظ" وحده، بل إنما يتم بتكوين "مَلَكة **التصرُّف** في العلم والتعليم". وبالتالي على الطالب أن يحذق في العلم، ويتفنن فيه، ويتمكن منه، حتى يصبح قادرًا على المفاوضة والمناظرة فيه، وذلك إنما يتم "بحصول مَلَكة في الإحاطة بمبادئ العلم وقواعده، والوقوف على مسائله، واستنباط فروعه من أصوله". ولهذا السبب ينتقد ابن خلدون كثرة الحفظ، ويقول بلزوم اتباع طريقة المحاورة والمناظرة في العلم والتعليم: "إن أيسر طرق هذه المِلَكة (أي مَلَكة العلم) فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرِّب شأنها ويحصِّل مرامها"، يسمي ابن خلدون هذه المَلَكة باسم "المَلَكة العلمية"، ويقرِّر أنها

[3] مهيع: بفتح الميم وسكون الهاء وفتح الياء بمعنى الطريق الواسع.

لا تحصل بمجرد حفظ مباحث العلم، حتى ولا بفهم تلك المباحث ووعيها، بل إنما تحصل "بالمحاورة والمناظرة والمفاوضة في مواضيع العلم"؛ فإن المحاورة والمناظرة هي التي تولِّد "مَلَكة التصرُّف"، و"مَلَكة استنباط الفروع من الأصول".

6–طرق التدريس أو التعليم المفيد

يفترض ابن خلدون أنه لابد أن يكون لدى الطالب "**استعداد** لما يلقى عليه"، ومع وجود الاستعداد لا يستطيع قبول العلم دفعة واحدة بل **يُتدرج في تعليمه شيئا فشيئا**، ويرسخ العلم في ذهنه مع **التكرار** على فترات متقاربة مع الاستعانة **بالأمثلة التي تقرب المعنى**، وحول هذا المعنى يقول: "إن قبول العلوم والاستعداد لفهمها ينشأ تدريجيا، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا قليلا وعلى سبيل التقريب والإجمال بالأمثلة الحسية، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل".

ويدعو ابن خلدون المعلمين إلى الاقتصار في تعليم المبتدئين على علم واحد أو اثنين، وحجته في ذلك "ألا يخلط على المتعلم علمان معا، فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما" ويصعب عليه فهمهما.

وتعليم العلم لديه يكون على ثلاث مراحل:

الأولى هي البدء من أصول العلم ومبادئه ثم الانتقال تدريجيا إلى التفصيلات ومنها إلى الفرعيات على وجه الإجمال إلى أن يبلغ نهاية العلم، وعندئذ تحصل للمتعلم ملكة في العلم إلا أنها ضيقة وغايتها تهيئته لفهم العلم وتحصيل مسائله.

والثانية، أن يعاود المعلم الشرح ويكون وسطا بين الإجمال والتفصيل، وهو يبين ذلك بقوله: "ثم يرجع به إلى الفن ثانية، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن؛ فتجود مَلَكته"

والثالثة، أن يعاود المعلم الشرح و"لا يترك له – أي المتعلم–عويصًا ولا مبهمًا ولا مغلقًا إلا وضّحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته".

هذا هو "**التعليم المفيد**" كما يصفه ابن خلدون ، وهو يحصل في "ثلاث تكرارات" ولكن معظم المعلمين لا يراعون هذا المبدأ الذي يقوم على التكرار والتدرج من البسيط إلى المركب، ويسلكون مسلكًا يخالفه وهو ما ينتقده بشدة «وقد شاهدنا كثيرًا من المعلمين لهذا العهد — الذي أدركنا — يجهلون طرق التعليم وإفادته، ويُحْضِرُون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مرانًا

على التعليم وصوابًا فيه، ويكلّفونه رعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يُلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعدَّ لفهمها".

وليس هذا الانتقاد الوحيد الذي يوجهه للمعلمين وإنما ينتقد كذلك ميلهم إلى العقاب البدني واستخدام الشدة مع المتعلمين كأداة ووسيلة للتقويم، وهو يقرر أن العنف مضر بهم من ثلاثة وجوه: أنها تذهب بالنشاط وتدعو إلى الكسل، وأنها تدعو إلى الكذب والرذائل الخلقية، وأنها تعلمهم المكر والخديعة، ولهذا يقترح ابن خلدون أن تمتد سلطة المحتسب إلى الضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ عن ضربهم للصبيان المتعلمين.

7-دراسة ميدانية للمناهج التعليمية

تطرق ابن خلدون في مواضع متفرقة من المقدمة إلى ذكر المناهج التعليمية السائدة في عصره، وذكر بعضا مذاهب الأمم الإسلامية في ذلك مشيرا إلى أن أهل الملة جميعا متفقون على أولوية القرآن وأنه ‘‘أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات"، ومع ذلك فقد رأت بعض الأمم أن يضيفوا إلى تعليم القرآن شيئا من الحديث والفقه، ثم الخط والكتابة، ثم أصول الشعر واللغة، ثم قواعد الحساب. ويميز ابن خلدون بين أربعة مذاهب أساسية في التعليم وبيانها كالتالي:

-**مذهب أهل المغرب**، ويتلخص في الاقتصار على القرآن لا يخلطون شيئا معه إلى أن يتمكن منه الدارس، ثم يخلطون به علوم العربية والخط.

-**ومذهب أهل الأندلس**، وهم يجعلون القرآن أساسا لكنهم يخلطون معه الشعر والترسل وقوانين العربية ويعتنون بالخط والكتابة.

-**ومذهب أهل أفريقيا** خلط القرآن بالحديث في الغالب، وهم يدرسون معه قواعد العلوم ومبادئها، إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على رواياته وقراءاته تفوق ما عداها ويأتي الخط والكتابة بعدها.

ومذهب أهل المشرق العناية بالقرآن كما يدرسون مبادئ العلوم، ولا يخلطون معه الخط الذي له قواعد محددة ومعلمون مختصون به.

ثم يخلص من دراسته إلى انتقاد المنهج الذي يقتصر على الحفظ ولا يخلق في الطلبة قدرة على المحاورة والمناظرة، فاقدين بذلك ما أسماه ملكة التصرف في العلم: "فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سُكوتًا لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من مَلَكة التصرُّف في العلم والتعليم. ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصَّل؛ نجد مَلَكته

قاصرةً في علمه إن فاوض أو ناظر أو علَّم، وما أتاهم القصور إلا من قبيل" رداءة طريقة "التعليم وانقطاع سنده، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به، وظنهم أنه المقصود في المَلَكة العلمية، وليس كذلك".

يتبيَّن من ذلك أن الطريقة التي تُتَّبَع في التعلُّم والتعليم تأتي بنتائج هامة حسب جودتها أو رداءتها. يستشهد ابن خلدون على ذلك بمقارنة مدارس تونس بمدارس المغرب: "ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة، وهي بتونس خمس سنين. فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة، لا ممَّا سوى ذلك".

الخاتمة:

يفهم مما سبق أن ابن خلدون تعمق في دراسة التعليم من كافة جوانبه، ومعظم آرائه التعليمية تناولت مفهوم التعليم والتعلم وآلياته وطرقه وأساليبه، كما تناول أهداف العملية التعليمية والمتمثلة في تحصيل **ملكة التصرف** بالعلم، حتى أنه أسهب في دراسة ميدانية لمدارس التعليم في زمانه وانتقد مناهجها وشخص عيوبها.